من يحق له التحدث
بإسم كل البشر !

7

العراق اليوم
Al Iraq Alyom

بصمة
ملحق ثقافي
المحرر الثقافي :
تحسين عبلس

العدد: 2455 الاثنين 19/ 10/ 2015

شِعريَّــةُ النَّــصِّ

قراءةٌ في قصــة الدغل لمحمود جنداري

أ.د.بشرى البستاني

تُعدُّ الشِّعريَّةُ اليوم مَفهوماً رحباً واسعَ الفضاءِ ومفتوحاً لاحتواء فنون عدةٍ ومعارفَ مُتنوِّعة، لكن المُصطلح انطلق أول انطلاقــته من اللغة ومن الاشتغال في السِّمات التي تجعل من النَّص أدبــاً في مجالي الشِّعر والنَّثر، فاللغةُ ميدانه، وطرائق اشتغالها محاوره، ومهما تباينت الآراء في السِّمات التي تحقق شعرية النَّص في أي نوع من الأنواع الأدبية إلا أنَّ الشِّعريَّةَ تبقى كما يؤكد تودروف فرعاً من فروع الدِّراســة الأدبيةِ والنَّقدية، فهو يبحث عن قوانين الإبداع وعن الخصائص المجردة التي تصنع فرادة العمل الأدبي ومن ثم تشكل أدبيته([١]) على أن اهتمام هذا الفرع البحثي يتجه نحو تشخيص طرائق لقول، أو أشكل صياغة المعنى من دون الاقتصار على ما يقــوله النَّص من معنى ومضامين فالمعاني متاحــة للجميع كما أكد الجاحظ من قبــل، أما الفن فيكمن في طرائق التشكيل التي تضمر القدرة على تحقيق الوظيفة الجمالية إذ تثير أحاسيس المتلقي بما يحقق لديه الوظيفة الشِّعريَّة فالقدر المشترك بين الشعريات الحديثة أنها لم تقتصر على البحث في شؤون الأدب بل اتجهت نحو الفنون والمعارف المختلفة كالرسم والنحت والسينما والمسرح والهندســة المعمارية مؤكدة الخصائص والسِّــمات التي تؤثر في الحــواس وتثير الإحساس بالجمال، من هنا انخرطت السردية مع الشِّعريَّة في بوتقــة واحــدة، لكونها تندرج ضمن علم عام يعنى بقــوانين الخطاب الأدبي شــعره ونثره([٢]). وهكذا صار البحــث في شعرية القصة وشعرية المسرح وشعرية الرواية وغيرها من الفنون أمرا طبيعيا مادامت الشِّعريَّة بحثا في قوانين الخطاب ومايجعل منه فنا من هنا ستتناول قصة الدغل لمحــمود جنداري مشــخصين بــعض تقنيات لشــعرية كالرموز والإيقــاع دون الوقــوف عند شعرية العناصر السردية لأنها تحتاج حجما لاتتسع له هذه الدراســة. إذا كان العنوان رســالة لغوية وبنية صغرى ذات وظائف متنوعة تتفاوت بين الإفصاح الدلالي والإغراء والإخواء واللبــس والتضليل كما يؤكد الباحــثون، وتلك البــنية الصغرى ترتبط بوشائج شتى مع بنية المتن الكبــرى هابطــة وصاعدة، فإن عنوان قــصة الدغل لمحــمود جنداري يختصر قــضية العمل بــكملها، أنه مصغر كوني يحــمل في طياته كل المعطيات والمجريات والقوانين والأعراف التي تحكم الكون بكل تناقضاته، واستلاباته وعطائه، وتوهجه عنفا وسلاما، خصبا وجدبا، زهوا وانكفاءً، له جزء متفرد من أكون تتفجر فيه الحياة، وينغمر بداخله الموت، ويتشابك الرطب باليابس إفصاحا وإلغزا، وموتا وخصبا من خلال الإشــارات والرموز التي ظل وميضها يتألق في النَّص رمزا فرمزا ؛ولذلك تمكن النَّص

ولن تفارقها، حملت أنفاسها وأغلقت نوافذ قلبها هربا من رياح حزينة تحمل اصفرار الأيام وذهب السنين، على بعد أمتار من أحد المطاعم كانت تجلس أرضا على بــلاط رخامي، كان الفصل خريفا ونسمات باردة تداعب خصلات شعرها الأبيض، أوراق صفراء تتساقط في ذبول حولها، استسلمت إلى قوة السلب وانتهت مقهورة لعالم الزوال والعدم، أما النصف الآخر فلا يزل يعيش ينظر للحياة بعين الرجاء بعد أن طاوعته نفسه بتركها تشقى بكل جفاء وعقوق، ولطول مدة مكوثها في نفس المكان تناساها المارة ولم يعد أحد يكلف نفسه أن يضع في يدها ما يعينها على شراء ما تحتاجه، كان "وليد" هذا الطالب الجامعي المحــروم من دفء أم غادرته بكرا كلما اجتاز ذلك المكان يميل عليها يسألها عن حالها ثم يمد يده إلى جيبه ليجود عليها ببعض الدنانير فتشكره في همس مثل حفيف السنابل المثقلة، ذلك الحفيف الواهن كأنها ورود داهمها الصقيع، كانت مصفرة الوجه، شاحبــة العينين، منقبــضة النفس، أثارت في نفســه كوامن الشفقــة لم يستطع أن يراها في هذا الحــال المزري ويمر عليها مرور الكرام، تقــدم منها وهو يريد أن يعرف سر الحــزن الذي يكســو محــياها، وما أن لاحظت اهتمامه وفضوله حتى أبدت رغبتها الكبيرة في سرد حكايا تها المبكية تحدثت وريقها يكاد يجف منها أن الحياة كانت بالنسبة لها مثل جرذ أسود ضخم يقضم أيامها التي لا تختلف عن هذه الأوراق المتناثرة حولها تحت أقــدام الخريف، إنها أوراق فحســب تسقــط من شجرة الحياة، أرقام و أسماء تضاف إلى القائمة المفتوحة الأذيال على المدى الواسع اللانهائي، لقد ملت زوجها وهي لم تزل في العقد الثاني من عمرها ولم تشأ الزواج ثانية آثرت الانقطاع لتربية أبنها، لم يكن يهمها من الدنيا قدر اهتمامها ببلوغ ابنها مراد أعلى المراتب، ولتحقيق هذه الأمنية الغالية كان لابد عليها إن تسعى في طلب العمل إلا أنها لم تلق من مختلف الجهات إلاصدودا، استقر رأيها في النهاية أن لا تبرح بيتها وأن تعمل بيدها لتوفر لابنها المأكل والملبس فتوطدت بينها وبين آلة الخياطة مودة جعلتها تقضي الليل بطوله تخيط للناس ملابسهم مقابل حفنة دنانير حتى تحقق لها حلمها بعد صبر سنين ما كانت تظنها تمر ولكن ما أسرع الزمن، ونجح أبنها وتزوج من احدى قريباتها ظنت أنها اختارت له المرأة الصالحة التي يمكن أن تريحها من عناء ما لقيته خلال سنين طوال من الكفاح لكن سرعان ما أدركت أنها كانت مخطئة في اختيارها .صمتت، تزاحــمت الأفكار، اعتدلت في جلستها تريد التمادي في وصف أحزانها التي تؤرقها لتبدأ من جديد معلنة نهاية مرحلة قد لا تعود، ابنها الذي كان شديد التعلق بها، لا يقبل على عمل إلا ويستشيرها فيه ويطلب رأيها، قد تغيرت طباعه ولم يعد بارا مطيعا، تمكنت زوجته بخبثها ومكرها أن تقتعه أن يتخلى عنها وأن يودعها في دار المسنين، لم يرفض فكرتها ، لم يصرخ في وجهها، لم يثر غضبا عليها بل التزم الصمت، لم تتحمل فأثرت أن تهجر بيتها مؤثرة عيش الشوارع على البقاء في مكان أصبحت غريبة فيه، مضت الأعوام وهي في ذات المكان تمني النفس بعودته إليها يوما نادما، انقضت السنون وأدركت أنه مشــغول عنها ولم يعد يتذكرها أو لعله يتحاشى المرور على هذا المكان حتى لا يراها إن كل ما تتمناه اليوم وقــد أزفت ساعة الرحيل أن ترى ابنها يمر عليها كعصفور تركض إليه بكل قواها وتسابق الريح من أجله مثل غزالة ،أصبحــت تستأنس كثيرا بهذه الأمنية برغم أنها تراها وهما ، ذرفت الدمع كثيرا حــتى أصبح حــديثها نوعا من الأنين ، فهي أم ، والأم بطبعها تعفو وتضحي ، بقي وليد أمامها متحسرا لأنه يعرف ما أشقى وما أتعس من أساء إلى الأمومة ونسي أن الأيام دول وأن الجزاء من جنس العمل وأنه لا منــاص من عقــاب الله ، رجته أن يكون رســولها إليه ، غدرها وسحابة حزن تكسو وجهه بعد أن وعدها أن يبذل كل جهده كي يجمع شملهما ، ولكنه لم يوفق فقــد صم أبــنها أذنيه عنه، رفض أن يلتقي بــأمه وتعلل بأنها هي من اختارت هذا المصير، راع هذا الموقف وليد ولم يتمالك نفسه بعد أن نفذ صبره وقد رأى العقوق متجسدا أمامه في صورة ابن كان يتوقــع أن ينفض ما بين يديه ليهرول على فوره إلى أمه ساكبا أمامها عبــرات الندم ، فضل أن يعيش ويتمتع بــالمال والولد على لقــاء أمه التي تنتظر على أحــر من الجمر قــدومه وهي لا تطمع في شيء سوى أن تراه، أن تضمه إلى صدرها أن تســمع منه كلمة افتقدتها منذ سنين طوال .. "أمــي" عــاد وليــد أدراجــه خائب الرجــاء ودلــف مسرعا إليها ليخبرها أن تنسى هذا العاق الذي نسي أن هناك إلها عدلا سيقتص منه في الآجلة والعاجلة وأن لها في ربوع بلدها من لا يضيق ذرعا بــإيوائها ، تســارعت نبــضات قلبــه على رؤية جمع في مكانها المعتاد، بل إنهم يتلفون حولها ، اقــترب أكثر لم يجدها كما تركها آخر مرة لأنها فارقــت الحياة ، وقف يبكيها حتى حجبــت دموعه رؤيتها وكأن دمع عينه معه تودعها.

رد حريتــــي

نور الصباح الدقي يبــزغ من أعلى الجبــل الشامخة، تهب نسمة بأشجانها وحكاياتها مرة من قمم الجبل وأخرى على صفحــات البحــر الذي يزيد بــلدتها جمالا ورونقــا،

مجموعة قصصية

من سرق أحلامــي ..؟

أحقا لا نحس بقيمة الأشياء إلا بعد فقدها..؟ بقي هذا التساؤل بخاطري طويلا، تردد في وجداني آلاف المرات.. لم تســعفني أبــدا حــيلتي في أن أصرخ في وجه الزمن الذي أطاح بأحلامي..

طال وقــوفي أمام المرآة طويلا.. لأذت هي بالصمت أكثر مني، لم أستغرب منها ذلك فقد هالني منظر بقــــع الصدأ المتناثرة على صفحتها البيضاء.. هل يكون ذلك من فعل الزمن..؟

ها أنت تعودين من جديد لتجعليه شــماعة لتعلقــي عليها أخطائك، لا أدري حقــا لماذا راودتني لحــظتها أفكار جدتي وأمثالها الشعبية " الرجل والزمان ما فيهم أمان.." مع أنها كانت متســلطة على جدي لتقــي الورع.. وعلى الرغم من بنيته القوية التي تفوقها مرتين فإنها كانت تسيطر على قلبه وعقله بشكل واضح للجميع ، كان كلما عاد من الجامع ببرنوسه الأسود الأنيق وجبته البــيضاء الفضفاضة تتدلى منها سلســلة ساعته الفضية، نهرع إليه نحــن أحفاده.. ليفرغ إلينا جيوبــه المليئة بقــطع الحــلوى الكثيرة، فعرفت أنه الحــب الصادق دون منازع. حــتى ذلك اليوم فاجأنا زائر الفجيعة والأحــزان، اختطفه من بــيننا، حــنت إليه جدتي واشتاقــت لمشــاركته فنجان القــهوة الصباحي. تمنيت وأنا امرأة في أوج إندفاقي أن أكون بطلة من بطلات أحــجياتها.. حينما كنا نتحــلق من حــولها صغارا ونغرق في الإنصات إليها و تستمر هي في سرد حكاية اللونجة، والجازية الجميلة بشعرها الطويل على غير العادة يكسو مفاتنها.. لأقهر قلوبا حــنطت بــالمكر والخديعة فجرت أحــلامي شظايا متناثرة على عتبات الزمان، انتشلتها دموع أمي الدافئة، تردد بــصوت مختنق عبارات الأمل المشلولة، أقف معتوهة أمام أبواب الحياة من جديد.. لا أقــدر أن ألجها، بــيني وبــينها تقــف أعوام صدرت فيها أحلامي.. أستنجد بقاموس الضياع، أنتقي منه كلمات متعثرة.. أبحث بها عن ســراب ضاع في ثنايا الحزن و أتساءل للمرة الألف " هل حقا ضيعت أحلامي.. أم أنها سرقــت مني..؟ أندفع نحو أغراضي وأشيائي.. أدفن أنفاسي المقهورة بين كتبي، وأوراقي تتبثق منها عيون لولبية تحمل في أهدابها دموع أفعى، أنتفض من مكاني مذعورة.. تلاحقني تلك العيون فأغرز فيها بــصري.. أجد بداخلها ورقة بيضاء، إنها شهادة ميلادي، أحاول إمساكها لكنها تختفي بعدما ابتلعتها دوامة الزمن، أصطدم أنا بمرآتي، ترجعني خطواتي إلى الوراء.. حينها اشتعل بركان ثورتي عليها ، أعرف أين ســأجدها.. هناك بالقصر الحزين، أركض نحوه..يطالعني كلب رابض.. تربعت على عرشه الخرافي حينا من الزمن، يقــولون" مأوى للأشباح تسكنه ليلا وتغادره نهارا.. بني على سور المدينة العتيقة تحرسه عيون البحر نهارا.. لينام في أحضان مدينة هادئة ليلا، اقــترب أكثر فأكثر، تعترضني العيون اللولبــية.. أظنها هي من سرقــت أحلامي وعطلت لغة الإدراك عندي عشــرة أعوام.. أتحســس قدماي، مسكينة قدماي أتقنت لغة الهروب، منذ زمن تجرني إلى بيتي الصغير، تسرقني لحظات الأمان، أحتضن فيها زهراتي.. أشتم عطر البــراءة فيها، أتلذذ بــطعم الحــياة بتقبيلها.. أســمع وقــع خطوات تعلو على إثرها نبضاتي.. يفتح الباب لينتصب بقامته أمامي وظله ساقط على وجهي.. أبحث عن عينيه فأجدهما لولبــيتين تحــملان في أهدابهما الشــر، أســتنجد بــصدر النافذة المفتوح.. يأتيني جدي بملامحــه الهادئة تتبعــه جدتي تصرخ في وجهي .. أهربــي.. أهربي.. أهربي.

أنيــن على قارعة الطريق

الحياة أبكتها، وحاولت ترميم ما تحمله من تعب وأفكار وســاعات فرح ظنت أنها دائمة

صبحة بغورة

تقصده كل يوم تحــاكيه وتبحــر معه بــعين دامعة، تســترجع ذكريات الماضي الحــنون والصبــا الولهان حيث البرقــات الجميلة والنسمات الحلوة تداعب القلب فترسم فيه وشــما لا يمحــى، ردت : " آه من الغربــة ومرارتها، كيف يترك هذه المياه العفراء التي تعمدنا عليها طويلا؟ كيف ينســى أنفاسنا التي التحمت مع الأمواج الدلازوردية فتكونت سيمفونية ساحرة وقــطعة كونية أبدعتها الطبيعة لنا نحن الاثنان..؟ رفعت عينيها إلى قــمة الجبل، شــعور بالغربة يجتلحها، يحــرمها من النوم ومن أن تغمض عينيها، نظرها هارب عن كل ما يوقــظ الذاكرة صارت حياتها مثل الشــجرة بــجذع مكشــوط لحــاءه وفروع نافرة في غير انتظام، هي تعلم أنه لن يعود ثانية لحــياة ودعها، تحــاول مع نفســها ترميم ما رماه وراءه من تعب أفكار وساعات فرح ، الغربة تأخذ منها دون رحمة، قصدها للعمل تركها عروســا لم يمض على زفافها شــهر تكابد المتاعب، كتبــت له الكثير من الرســائل، لم يستجب لندائها، لبيت صار باردا، فراشها أشــواك تلدغ جســدها المفعم بــالأنوثة المغرية، يافعة ،جمالها ريفي يحمل العذرية في كل تقاســيمه، انزوت في مكان ظليل تفكر.. إنها خمس ســنوات مبــتورة من عمرها، لا أولاد لها منه ينسونها همها، ولا أهل يواســونها ، ليس لها إلا هذا البــحر تغوص فيه بــكل الألوان والأحــلام والموسيقــى، إنها بــين الوعي واللاوعي،تعلم أنه وجد حــياة أخرى، أخبــروها بــعضهم ثم أكد الكثيرون ممن يعرفونه في الغربة أنه وجد الحياة مع امرأة أخرى وأنجبت له أطفالا.. بكى قلبــها، لم يكلف نفسه السؤال عنها ولم يفكر حتى أن يعطيها حريتها، قــررت أن تواجه الحقيقة بنفســها، تعبت من ظلم القــدر وعبث المجهول وزيف الضحــكات، لمن تبــوح خفاياها وأســرارها الحــميمة المهددة بالانقــراض والتلاشي، وبــعد تفكير طويل صارت التذاكر الزرقــاء بيدها اليمنى، غدا على الساعة العاشرة تصعد سلالم الطائرة بــاتجاه فرنســا هناك ســيكون في انتظارها صديق زوجها ياسين، قضت أيامها معه وسط عائلته، وجاء اليوم الذي عزمت فيه على مقابلة زوجها، تريدها الأخيرة وطلبت من ياسين تحضير اللقاء، تحدد الموعد على مائدة العشاء بحــضور زوجته الفرنســية وولديه، قابلته بقشــعريرة وكأنها فصول مسرحية معدة، لقد تغير كل شــيء أيضا بالنسبة له، أخيرا ستخرج من الوحل الذي عاشــت فيه طويلا، كانت عينا زوجها محدقــتين فيها طويلا كان فاقــدا لتوازنه وإحساســه بــالوجود، ولج في تيه صمت كبير، ويداه على وجه تمزقت ملامحــه منذ أن غادرها ، إنها رائحــة الوطن تحــملها معها، دموعه نقشــت على خديه طريقــا لا عودة منه، نظراته تتطق بحســرته على غفلته، بعدما انغمس مع الفاتنات في الحياة الجميلة الساحرة وتركها هي للزمن ينهش لحــمها لم يبــق له معها ســوى الذكرى بحروف بالية ليس لها معنى، لم يزح بصره منها، القوام والشعر والملامح نفسها التي تعكس ملامح بلدته وقريته، حملت عيناها رسالتها لقد أمات فيها المشاعر وأمست في عداد الموتى، قالتها بصوت واثق أن يعطيها حريتها، فهم حينها كل شيء، إن ياسين سيكون زوجها، سيكون لها ما تبقى من الفصول، لقد تأكد أنه حبها، لقد شاهد قسماتها الصادقة ولمس نبض قلبها لقد عزمت أن تصنع لياسين لونا لحياته ليس له وجود يفوق لون الورود المتلهفة للحب، لون يعبر عن عشق لم يذكر في أي كتاب، لقد أدرك أن خيانته لها صنعت منها امرأة ناضجة تعرف كيف تحب .. ومن تعشق.

الحالمون

ثامر سعيد

البحرون بلؤلؤٍ وحرير
من جنائن دلمون
وأعقلة مقصّبة
يمّموا شطرَ السوادِ
قلوبهم
ثم قالوا للبحرِ: هيتَ لك
تعللوا بالأفقِ من العروش
وبالموجِ من ليلٍ بلا أجوبة
بلا راعٍ عافوا
فسائلهم
ودكاكينهم بلا أقفال
وبينَ قبور أسلافهم
تركوا وردةً بيضاءَ..
التقطها من حفلةِ المرجانِ
إلهُ المياه
فلا منحتهُ الخلود ولا
سكنتهم السكينةُ.
بالدمعِ على القلعةِ القديمة
وشموا أسماءهم
وعلى السورِ قبل أن يندرس.
وفاءوا إلى نخلٍ غريب
وبجومِ أشعلتها
وحشةٌ
ولمٌ يطفئها حنين.
بريشٍ ابيضَ وزعيقٍ
في غسقِ المآذنِ
والأعشاش
طيَّروا أحلامهم..
فصار النهرُ
سفائنَهم
والسوقُ أمتعةً ومآثر.
أختامٌ صناديقهم
ودراهمُ..
وزهورٌ ذابلةٌ صناديقي
ورسائل
عشقوا النساءَ..
فأدمنوا الأسرارَ والمدن
البعيدة
وعشقتهنّ
لأخطفَ من
شفاههنّ القصائدَ
من أجل غلاتهم
يحلمون في المطر
وفيه أحلمُ..
لتورقَ في دفاتري
الفصول.
انبت الحالمون شاعراً..
قوّضَ أحلامهم